من قضايا اللغة في تفسير الطبري

الأستاذ سبايس الحاج

جامعة تيارت ـ الجزائر

الطبري شخصية علمية تجمع صنوفا ثقافية عدّة، فإلى جانب ثقافته القرآنية الواسعة، يحوز ثقافة حديثية وفقهية، وأخرى لغوية ونحوية، وأخرى تاريخية وفلسفية، بل قد حكي عنه أنّه كان في كلّ ثقافة كأنه لا يحسن غيرها، وما ذاك بمستغرب على رجل أنفق عمره خالصا للعلم، وعكف على التأليف حتى خلّف إنتاجا غزيرا وافرا، يصدر في معظمه عن نظرة فاحصة معمقة، وفكر ناقد، شهد له بذلك غير واحد من العلماء، ودلّ على ذلك كتابه العلم في التفسير "جامع البيان عن تأويل آيّ القرآن".

يروم البحث تتبع ثقافة الرجل اللغوية التي انعكست في تفسيره الذي ما فتئ ينعت بأنه علية التفاسير بالمأثور نظرا للعناية الفائقة التي حظيت بها الآثار والنقول في هذا الكتاب. بيد أنّ النظر الفاحص والمدقق في هذا التفسير لايقنع بهذا التصنيف ولايسلّم به، إذ جانب النظر والاستدلال والموازنة والنقد وإعمال الرأي وغيرها من الأدوات المنهجية العقلية لا تكاد تخطئها عين الناظر في الكتاب وما بنا في هذا التتبع العجل من تفصيل في منهج الطبري التفسيري وآلياته وإنما يعنينا حديث اللغة . وهذا البحث ينظر في قضيتين أساسيتين لهما علاقة بعربية القرآن، لنتبيّن تعامل الطبري معهما. ذانك هما :

أولا: اعتماد تفسير اللفظ القرآني على الشعر وما أثاره ذلك من شبهة تعويل لغة الوحي على لغة الشعر البشرية.

ثانيا: قضية عربية اللفظ القرآني، أو ما اصطلح على تسميته بقضية المعرَّب والدخيل في القرآن الكريم.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

1 – اعتماد التفسير على الشعر:

1 – 1 – ضرورة العلم بالشعر:

جاء في كتاب الله، فيما يفيد نزوله بلسان العرب، قوله تعالى: ﴿ پ ڀ ٺ ٿ ٿ ٹ ﴾[1] وقوله: ﴿ۀ ہ ہ ہ ھ ے ﴾[2]، فكان من فضل الله على العرب أن نزل هذا الكتاب بلسانهم، وأن أرسل رسولا منهم إليهم وإلى الناس كافة، قال الله تعالى: ﴿ چ چ چ﴾[3] وقال: ﴿ۀ ہ ہ ہ ﴾[4]. وبذلك قضت مشيئته عز وجل أن يكون لسان البلاغ إلى الأمم جميعا في الرسالة الخاتمة هو اللسان العربي.

ومن ثمّة أصبح العلم بهذا اللسان ذا أهمية بالغة في فقه فحوى الخطاب القرآني، لا سيما حين تأخر الزمن عن زمن الوحي، واتسعت رقعة الإسلام، وضم إليه الأعاجم، ما أفضى إلى فساد السليقة وفشو اللحن، فانتفض من قيّضه الله لهذا الأمر من العلماء واللغويين يستقرون لسان العرب ويصفون سننها في الكلام، ويبينون معاني ألفاظها كما أدتها. فكان من جملة ما اعتمدوا عليه في ذلك الشعر؛ ديوان العرب، وصنعتها ومبلغ علمها.

وقد أفاد المفسرون أيضا من هذا الديوان وأقاموه شاهدا على ما ذهبوا إليه في تحديد المعنى وتفسير آي كتاب الله، لأنه كان الوعاء الذي استوعب هذا اللسان وحافظ عليه.

وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ما يشير إلى فضل الشعر والترغيب في روايته وتعلمه، من ذلك ما روي عن عبد الله بن عمر قال: « وفد العلاء بن الحصين على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أتقرأ من القرآن شيئا؟" فقرأ "عبس" ... ثم قال: "هل تروي من الشعر شيئا؟" فأنشده:

حَي ذَوي الأَضْغَانِ تَسْبي قُلُوبَهُم — تَحِيَّتَكَ الحُسْنَى وَقَدْ يَرَقَعُ النَّعْلُ
فَإِنْ دَحَسُوا بالكُرْه فَاعفُ تَكَرُمًا — وَإِنْ خَنَسُوا عَنْكَ الحَديثَ فَلا تَسَل
فَإِنَ الذي يُؤْذيكَ منْهُ سَمَاعُه — وإنَّ الذي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَل.

فقال النبي عليه السلام: " إن من الشعر حكما وإن من البيان سحرا"»[5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقريب من هذا ما روي[6] من أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم بكلام لين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما"[7] وفي نص الحديث هذا دلالة واضحة على قيمة الشعر وفضله وتمكنه من الحياة العربية، وكذلك فهم الصحابة رضوان الله عليهم قيمة الشعر ودوره في تفسير القرآن، فذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: " ما تقولون فيها؟ - يعني بذلك﴿ ڈ ژ ژ ڑ ﴾[8] فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا، وأنشد:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن.

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم." [9] ففي كلام عمر توجيه صريح إلى تعلم الشعر واستخدامه في تفسير كتاب الله تعالى وهذا هو الأمر الذي استخدمه ابن عباس ترجمان القرآن وأرسى دعائمه فيما أضحى يسمى فيما بعد بمدرسة ابن عباس في التفسير.

1 – 2 – ابن عباس ومدرسته في الاستشهاد بالشعر:

يعد عبد الله بن عباس (ت **69**هـ) أبا التفسير الإسلامي، وطليعة المسلمين في هذا الحقل العلمي الذي أرسى حدوده، ووضع معالمه، بما وعاه من تراث الرسول وصحابته، وما حظي به من فنون المعرفة. لا سيما المعرفة بلغة العرب المستمدة من المعرفة بأشعاره، فقد كان بحق كما وصفه عبد الله بن مسعود: " نعم ترجمان القرآن ابن عباس"[10]، وانتهى بذلك إلى الصورة التي دعا له بها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل."[11] وتقوم مدرسة ابن عباس في التفسير على ثلاث ركائز[12]

1- المعرفة بالمأثورات. 2- المعرفة باللغة والتبحر فيها. 3- المعرفة بالأخبار والتاريخ.

وما يعنينا منها في هذا المقام الركيزة الثانية: المعرفة باللغة والتبحر فيها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فقد كان ابن عباس " دائم الإحالة في تفسيره على الشعر العربي يستخرج منه محل الشاهد على الاستخدام القرآني، ويشير على الناس أن يسلكوا هذا المسلك."[13]

وورد له في ذلك آثار عديدة من ذلك ما رواه عكرمة أنه قال: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب"[14]. وعن عكرمة أيضا قال ما سمعت ابن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتا من الشعر، وكان يقول: "إذا أعياكم تفسير آية في كتاب الله، فاطلبوه في الشعر فإنه ديوان العرب". [15]

وأوضح مثال تتجلى فيه علاقة الشعر بالتفسير عند ابن عباس، ما جاء في مسائل نافع بن الأزرق له عن أكثر من مئتي كلمة في القرآن واستشهاد ابن عباس على كل جواب ببيت من الشعر، وقد نشر الكثير منها الإمام السيوطي في إتقانه[16]، وهي مجموعة في كتاب من تحقيق محمد عبد الرحيم وأحمد نصر الله بعنوان "غريب القرآن في شعر العرب، سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس".

وفي هذا كله دلالة على احتفاء ابن عباس بالشعر ونصبه له لبيان اللفظ الغريب من القرآن، وهي السنة التي حذا حذوه فيها العديد من المفسرين من بعده، وتوسعوا فيه، من أمثال أبي عبيدة والطبري، والزمخشري، والبيضاوي، والقرطبي. كما استخدم هذه الطريقة كثير من اللغويين وأكدوا عليها؛ فهذا ابن فارس يقول: " والشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله جل ثناؤه..."[17]

والسيوطي أوصى بالعناية بحفظ الأشعار واستخدامها في التفسير، فقال: " وليعتن بحفظ أشعار العرب فإن منه حكما ومواعظ وآدابا، وبه يستعان على تفسير القرآن والحديث."[18]؛ بل إن من العلماء واللغويين من فسر ألفاظ القرآن ووضح معانيها بشعر فيه ذكر الفحش والفعل السيء، ولم يكن غرضهم في ذلك سوى اللغة وإظهار اللفظ.

يقول الجرجاني في ذلك: "وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات التي فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعبهم ذلك، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم يرووا الشعر من أجله."[19] فالثابت من هذا النص أن عملية الاستشهاد بالشعر على ألفاظ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القرآن الكريم ومعانيه هي عملية ثابتة وقارة عند المفسرين واللغويين خطّ خطاها الأولى ابن عباس وتابعه فيها من جاء من بعده. غير أن ذم القرآن للشعر والشعراء، وقياس النص القرآني الذي هو نص مقدس إلى نص بشري شعري أثار شبهة في أذهان البعض وتطور إلى خصومة مع من استخدم طريقة الاستشهاد هذه.

يقول السيوطي فيما يرويه عن أبي بكر الأنباري: " وأنكر جماعة لا علم لهم، على النحويين ذلك، وقالوا إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن، وقالوا وكيف يجوز أن يحتج بالشعر وهو مذموم في القرآن والحديث؟"[20] ومسألة الإنكار على الاحتجاج بالشعر مسألة قديمة، نقلها بعض المحدثين نقلا عن بعض المستشرقين.

يقول الهادي الجطلاوي فيما يفيد تبنيه لهذا الاتجاه: "وأصحاب هذا الرأي في فصلهم بين الشعر والقرآن يدافعون عن كتاب الله ينزهونه عن الاتصال بالشعر مهما كان نوع ذلك الاتصال مسايرة لموقف الذات من الشعر والشعراء، وهو موقف يستخلص منه أن الرسول أفضل من الشعراء وأن القرآن أفضل من الشعر مختلفا عنه."[21]

والحق أن الأمر لا يمكن تعليله – كما ذهب الجطلاوي- بأن الفريق المنكر، مدافع عن كتاب الله ومنزه له، وكأني بالفريق الآخر متعدّ على كتاب الله غير حافظ لحرمته! وهل يعقل أن يكون الطبري والزمخشري والبيضاوي والقرطبي وابن فارس والجرجاني... وغيرهم ممن استن بسنة الاستشهاد بالشعر للفظ القرآني، وهم من هم من العلم والدراية لم يفطن لهذه السبة في حق القرآن!! ثم هل ابتدع هؤلاء شيئا من عند أنفسهم؟ ألم يكن ذلك خطَّ ابن عباس، حبر الأمة ومفسرها الأول بشهادة الرسول وصحبه الكرام؟! فالطعن في هذا المنهج هو طعن في ابن عباس قبل أن يكون طعنا في المفسرين واللغويين، ثم إن هذا الإنكار يقوم على دعامتين كلاهما مردود، فأما الأولى: وهي جعل الشعر أصلا للقرآن، فليس الأمر كذلك، وإنما غاية الأمر تبيين اللفظ الغريب من القرآن بالشعر.[22] أي ما غمض ودقَّ فهمه يلتمسونه في السياق الذي استخدمه العرب، وسياق العرب ليس إلا شعرها، لأنه هو جل ما حفظ من تراثها، وأما الثانية: فهي كيف يحتج بالشعر وهو مذموم؟ فجوابه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن الشعر ذُمَّ لعلة عقدية وذلك واضح بنص الآية: ﴿ۇ ۆ ۆۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى □ □﴾[23] ولذلك استثنى منهم: ﴿□ □ □ □ □ □﴾[24] وإنما يستخدم المفسرون واللغويون الشعر لعلة لغوية لفظية ليس إلا.

ومن ثمة يتبين أن كلام الجطلاوي ومن شايعه ليس إلا ضربا من المغالاة التي لا مبرر لها

1 –3 - الاستشهاد الشعري في تفسير الطبري: الطبري في استشهاده بالشعر على اللفظ والأسلوب القرآني هو امتداد لمدرسة ابن عباس، بل إنه يتوسع في ذلك بالنظر إلى ظروف عصره، وما وصل إليه من تراث لغوي وتفسيري انتهى إليه عن سابقيه من أمثال أبي عبيدة (ت 209هـ) والفراء(ت207 هـ)أو معاصريه كالزجاج (ت 311هـ).

فالطبري بما أوتي من ثقافة لغوية وشعرية واسعة – يدل على ذلك كثرة الشواهد في تفسيره – يتحاكم للتعرف على دلالة اللفظ القرآني إلى ديوان العرب، ويستظهر معنى اللفظ داخل سياقه الشعري للدلالة على معناه في سياقه القرآني، بل إنك تجده أحيانا يتعامل مع ذلك تعامل اللغوي - المعجمي – فيحيل إلى المعنى الأصلي للكلمة ويشرح الشاهد واللفظ شرحا وافيا، من ذلك مثلا ما جاء في معنى لفظ "تأويل" في الآية: ﴿ئى ئى ئى ۇ ۆ﴾[25]يقول مستشهدا بالشعر: و"أما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير والمرجع والمصير، وقد أنشد بعض الرواة بيت الأعشى

على أَنَّها كانَتْ تأَوُّلُ حُبِّها تأَوُّلَ ربعيِّ السِّقابِ فأصْحَبَا[26]

و أصله من آل الشيء إلى كذا، إذا صار إليه ورجع يؤول أوّلا وأولته أنا: صيرته إليه. و قد قيل: إن قوله: ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي جزاء، وذلك أن الجزاء هو الذي آل إليه أمر القوم وصار إليه. ويعني بقوله: تأول حبها: تفسير حبها ومرجعه، وإنما يريد بذلك أن حبها كان صغيرا في قلبه، فآل من الصغر إلى العظم، فلم يزل ينبت حتى أصحب فصار قديما كالسقب الصغير الذي لم يزل يشب حتى أصحب. فصاركبيرا مثل أمه.و قد ينشد هذا البيت:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على أَنَّهَا كانَت تَوابِعُ حُبِّها تَوَالِي ربعي السَّقَاب فأَصْحَبَا"[27]

بل يبلغ التعامل مع دلالة اللفظ القرآني عند الطبري في سياق لغوي آخر، حد رصد تطور المعنى في اللفظ من خلال عرض معناه الأصلي في الجاهلية، بما يستوحى من الشاهد الشعري، وتسجيل المعنى الجديد الذي يثبته الاصطلاح القرآني في الإسلام مرفقا ذلك بتعليل يربط المعنى الجديد بالمعنى الأصلي، نظير ذلك ما جاء في معنى لفظ صلاة فيقول: " ... وأما الصلاة فإنها في كلام العرب الدعاء كما قال الأعشى:

لَهَا حَارسٌ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيتَهَا وإنْ ذُبحَتْ وَصَلّى علَيها وزَمزَما[28]

و صلى عليها يعني بذلك دعا لها، وكقول آخر أيضا:

وقَابَلَهَا الريحُ في دَنّهَا وَصَلَّى على دَنّها وَارْتَسَمْ

و أرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة لأن المصلي منعرض لاستنجاح طلبته من تواب الله بعمله مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته تعرض الداعي بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤاله."[29]

- قضية المعرب والدخيل:

قضية المعرب والدخيل في اللغة العربية، قضية شائكة شغلت حيزا في التفكير اللغوي- المعجمي- العربي، ذلك أنها تمس حدود التأثر والتأثير مع بقية اللغات والألسنة، وكذلك بأنها ترتبط ارتباطا وثيقا بذلك السجال والجدال الذي ثار حول هذه الظاهرة- ظاهرة العجمة- في النص القرآني يقول د. إبراهيم بن مراد: "من أشد مسائل اللغة العربية تعقيدا وغموضا مسألة "اللفظ الأعجمي" المعروفة عند القدماء بمسألة المعرب والدخيل " وعند المحدثين بمسألة "الاقتراض" ولتعقيدها وغموضها أسباب كثيرة أهمها ما اتصل بالمواقف المذهبية العقائدية من اللغة، وما نتج من ثقافة اللغويين العرب، القدماء والمحدثين على السواء ذلك أن المسألة قد ارتبطت في أذهان كثيرة - منذ القرن الأول الهجري، وإلى يوم الناس هذا- بما ثار من جدال حول ظاهرة العجمة في النص القرآني".[30] والواقع أن اللغويين قرروا حدوث هذه الظاهرة في الشعر الجاهلي، وعزوا سبب ذلك إلى احتكاك هؤلاء الشعراء وعلاقاتهم مع الأعاجم من الروم وفارس مما ألصق بألسنتهم كلمات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دخيلة، صارت متداولة في أشعارهم ومثلوا لذلك بعدد من الأمثلة منها كلمة "فرانق" التي وردت في شعر امرئ القيس في قوله.

إني أَذينٌ إن رَجَعتُ مُملَكًا بسَيْر تَرَى منه الفُرَانقَ أَزوَرَا[31].

وفرانق فيما ذكر الخفاجي (ت 1069 هـ) عن الجوهري، فارسي معرب وتعني ما ينذر بالأسد[32] ومنها أيضا لفظ "القمقم" في شعر عنترة.

وكَأنّ رُبّا أَو كُحَيلاً مُعْقَدًا حَشَّ الوُقُود به الجَوَانبَ قُمْقُم[33]

قال الخفاجي في شفاء الغليل: "قمقم رومي معرب تكلموا به قديما".[34] ومن ذلك ما نصه ابن قتيبة في أن "الأعشى كان يفد على ملوك فارس، ولذلك كثرت الفارسية في شعره، ".[35]

ولكن هذه الكلمات الوافدة كانت قليلة وتأثيرها ضئيلا، يقول د. سالم مكرم: "وبعد فإن هذه الكلمات الأعجمية أو المعربة اقتحمت أقوى بناء شعري وهو الشعر الجاهلي، وبخاصة شعر المعلقات ألا يدل هذا أن اللغة العربية لم تكن لغة مغلقة، وأنها احتكت بغيرها من اللغات فتأثرت بها، ودخلتها كلمات أعجمية، ولكنها لم تكن هذه الكلمات الوافدة كثيرة، ولذلك كان تأثيرها ضئيلا، وبقيت اللغة العربية بصيغتها وأبنيتها، ومفرداتها ومعانيها، وتراكيبها وأساليبها في ازدهار حتى نزل القرآن الكريم بها، وكان موضع تحد لها".[36]

وكذلك تحدث بعضهم عما أحدثته حياة التحضر والمدنية فيما بعد الإسلام، من تأثر باللغات الأخرى أدت إلى شيوع هذه الألفاظ الدخيلة، فقال قائلهم وهو يعرّف بهذه الألفاظ: "ويراد بها تلك الألفاظ التي داخلت اللغة العربية عن طريق اختلاطها بالأمم الأعجمية ولغاتها، وعن طريق الحياة الجديدة علمية كانت أم اجتماعية، وذلك أن حياة التحضر والمدنية اضطرت العرب أن يأخذوا للغتهم من اللغات الأخرى، ما لم يكونوا يرون من أسباب العيش ووسائل الحياة المترفة الناعمة وقد كان ذلك في سائر مرافق الحياة، من أدوات الزينة، وأنواع المأكل والمشرب والملبس وآلات الغناء".[37]

ولئن كانت القضية تأخذ منحى الثبوت في الشعر وسائر الكلام، نتيجة التأثر والاحتكاك والانفتاح على بقية الأمم، فإن للقضية سياقا آخر ومنحا مخالفا حين يتعلق الأمر بالنص القرآني، فقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اختلف العلماء في وقوع المعرب في القرآن واشتماله على اللفظ الأعجمي، وقبل أن نخوض في هذه الآراء نعرض للألسنة التي جاءت بها هذه الألفاظ.[38]

1- ما جاء بلسان فارس: ومثاله: الأباريق، التنور، الإستبرق، الزنجبيل.

2- ما جاء باللسان العبري، ومثاله: درست، هدنا، راعنا.

3- ما جاء بلسان الروم ومثاله: القسطاس، الرقيم واللوح.

4- ما جاء بلسان الحبشة ومثاله: الكفلان، ناشئة الليل.

5- ما جاء بالسريانية ومثاله: الطور وحبل.

6- ما جاء باليونانية ومثاله: سرّيا: وهي النهر الصغير.

7- ما جاء بالزنجية ومثاله: حصب جهنم بمعنى حطب جهنم.

8- ما جاء بالنبطية ومثاله: رهوا بمعنى سهلا.

9- ما جاء بالقبطية ومثاله: بطائنها: ظواهرها، واليم

رأي العلماء في هذه الألفاظ

أ- من يقول بأعجميتها

ويستند هؤلاء إلى ما رواه ابن جرير بسنده عن أبي ميسرة قال: "في القرآن من كل لسان"[39] وما رواه أيضا بسنده عن سعيد بن حبير قال: "قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن أعجميا وعربيا! فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ﴾[40] فأنزل الله بعد هذه الآية في القرآن بكل لسان، فيه ﴿ ڀ ڀ ٺ ﴾[41] قال فارسية أعربت "[42]

وهذا هو الرأي الذي اختاره السيوطي معتمدا على هذه الآثار وقال: "فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حول علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء فلابد أن تقوم فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب".[43]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب- من يقول بعربيتها:

ذكر السيوطي في إتقانه أن الأكثرية تقول بعدم وقوع المعرب في القرآن.[44]

وجاء في أدب الكاتب لابن قتيبة (ت 276هـ) أن أبا عبيدة لم يكن يذهب إلى أن في القرآن شيئا من غير لغة العرب وكان يقول: "هو اتفاق يقع بين اللغتين".[45]

أما حامل لواء هذا الرأي فهو الإمام الشافعي (ت204هـ) الذي شدد النكير على القائل بأعجمية هذه الألفاظ معززا رأيه بالحجة والبرهان. يقول "ولعل من قال: إن في القرآن غير لسان العرب وقُبل ذلك منه: ذهب إلى أن من القرآن خاصا جهل بعضه بعض العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا، ولا نعلم يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ولكن لا يذهب منه شيء على عامتها حتى يكون موجودا فيها من يعرفه".[46]

وهو بهذا الكلام يفسر تلك الآثار التي تقول بأعجمية اللفظ على أنها مما جهل بعض العرب، ويقيم الحجة على من يسأل عنها في قوله" ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب، لا يخلطه فيه غيره؟ فيقول: "فالحجة في كتاب الله، قال الله:﴿ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ﴾".[47] فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة ، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟

فإذا كانت الألسنة تختلف بما لا يفهم بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع".[48]

وبحجية بالغة يقرر الشافعي عربية اللفظ القرآني خالصة، وينفي عنه العجمة التي لا تنبغي له.

موقف الطبري:

تحدث الطبري عن هذه المسألة في مقدمة تفسيره تحت عنوان "القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأثبت آثارا يفيد ظاهرها بأعجمية بعض الألفاظ القرآنية كلفظ الكفلان: ضعفان من الأجر. بلسان الحبشة[49]

وفسر تلك الآثار على أنها استعمال الأجناس المختلفة اللفظ الواحد للدلالة على ذلك المعنى وكأنه ضرب من المشترك اللغوي يتشارك فيه أكثر من جنس وينكر على أي جنس أن يدعي أصالة ذلك اللفظ عنده لعدم قيام الحجة على ذلك.

يقول الطبري: "فلو أن قائلا قال فيما ذكرناه من الأشياء التي عدّدنا وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره، وقال ذلك كله عربي لا فارسي أو قال بعضه عربي، وبعضه فارسي، أو قال كان مخرج أصله عند الفرس، فوقع إلى العرب فأعربته، كان مستحيلا لأن العرب ليست بأولى أن تكون، كان مخرج أصل ذلك منها على العجم، ولا العجم أحق بأن تكون، كان مخرج أصل ذلك منها إلى العرب، إذ كان استعمال ذاك بلفظ واحد ومعنى واحد موجودا في الجنسين... فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس الآخر، والمدعي أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر مدع أمرا لا يوصل إلى حقيقة صحته... بل الصواب في ذلك عندنا أن يسمى عربيا أعجميا".[50]

و يبدو الطبري في رأيه هذا امتدادا لرأي الشافعي في إنكار اللفظ الأعجمي في القرآن، ولكنه يجعله ضربا من الاشتراك والاتفاق الحاصل بين العرب والعجم، ولا يقطع برأي في أيهما صاحب اللفظ وأيهما المقترض!

والحق أن الرأي الذي تطمئن إليه النفس هو أن هذه الألفاظ التي يظن أن أصلها ليس عربيا، ولا يعرف مصدر اشتقاقها تكون بعضا مما فقد أصله وجهل مع تقادم العهد، لأن العرب من أقدم الأمم ولغتها من أقدم اللغات، وقد أثرت في أخواتها السامية وغيرها مما أكسب معجم هذه اللغات هذه الألفاظ، وذهبت عن العرب بذهاب مدينتهم الأولى قبل التاريخ، وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه سالم مكرم بعد أن استوفى القضية حظها من البحث التاريخي، مدعما ذلك ببحوث المستشرقين القاضية بأقدمية العربية وتأثر اللغات الأخرى بها[51] ليقرر في الأخير ما نصه: "ومن المنطق أن أقول

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن لغة احتكت بغيرها من اللغات الأخرى، فأثرت فيها ووصلت إلى هذه الدرجة من التطور لا بد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخرى، تمدها بما تحتاج إليها من مفرداتها الواسعة وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات في بناء الأمم التي اختلطت بالعرب"[52]

ويستهجن في منطق سليم ظاهرة العجمة في القرآن فيقول: "ولا يصح في منطق التفكير السليم أن نقول إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات، إذا قلنا ذلك فهذا حكم لا تسنده إلا هذه الأخبار التي ذكرها الرواة وهي أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم نفسه حينما يقول: ﴿ ﴾ [53] ومن العجيب حقا أن ندعي أن مفردات اللغة العربية التي عاشت هذا العمر الطويل وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ وعبر الأجيال تمثلها هذه المعاجم اللغوية أو هذه الروايات التي جمعها لنا رواة العرب حينما بدءوا يدونون اللغة".[54]

مراجع البحث وإحالاته

1 – سورة فصلت، الآية 2.

2 – سورة يوسف، الآية 2.

3 – سورة الشعراء، الآية 214.

4 – سورة سبأ، الآية 28.

5 – ينظر ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح: عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي القاهرة، 1/ 407، ط1،سنة 2000 . والبيت الثاني في لسان العرب لابن منظور، مادة دحس، وفيه أسند البيت للعلاء الحضرمي.

6– ابن رشيق، العمدة، 1/ 248.

7 – وقد قال ابن رشيق في شرح هذا الحديث: « فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله عليه وسلم وجعل الشعر حكما، لأن السحر يخيل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل، والباطل بصورة الحق، لدقة معناه، ولطف وقعه، وأبلغ البيان من عند العلماء الشعر بلا مدافعة، وقال رؤبة:

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا . فقرن الشعر أيضا بالسحر لتلك العلة. العمدة 1/ 27.»

8 – سورة النحل الآية 47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

9 – الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دارالمعرفة، بيروت، دط،دسنة، 2/ 330.

10 – الطبري،جامع البيان، 1/ 103.

11 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 1/ 50

12 – محيي الدين بلتاجي، دراسات في التفسير وأصوله، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1987، ص 44، 45.

13 – المرجع نفسه، ص 44.

14 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ص 42.

15 – ابن رشيق، العمدة، 1/ 30.

16 – ينظر السيوطي، الإتقان، من ص 301 إلى 327.

17 – ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص 212.

18 – السيوطي، المزهر في علوم اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، 2/ 265.

19 – الجرجاني، دلائل الاعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992 ص 12.

20 – السيوطي، الإتقان، ص 301.

21 – الهادي الجطلاوي، قضايا اللغة في كتب التفسير، ص 145.

22 – ينظر السيوطي، الإتقان، ص 301.

23 – سورة الشعراء، الآية 224، 225، 226.

24 – سورة الشعراء، الآية 227.

25 – سورة آل عمران، الآية 7.

26 – السقاب: ولد الناقة ساعة يولد، أصحب الرجل: إذا بلغ ابنه فصار له كصاحب.

27 – الطبري، جامع البيان، 3/ 1691، 1692.

28 – قوله زمزما أي ترنم وهو صوت الروم عند الأكل وهم صموت لا يستعملون اللسان ولا الشفة في كلامهم

29 – المصدر نفسه، 1/ 187.

30 – إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص207

31 – البيت في الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تح: أحمد محمد شاكر،دار الحديث، القاهرة،دط،1،2003/ 119.

الأذين: الزعيم والكفيل. أزور: مائل العنق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

32 – ينظر، الخفاجي، شفاء الغليل، لما في كلام العرب من الدخيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ص228

33 – الزوزني، شرح المعلقات السبع،دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 2002 ص 134. والقمقم: ضرب من الأواني

34 – المرجع نفسه، ص238

35 – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ، 2/ 251.

36 – سالم مكرم، اللغة العربية في رحاب القرآن الكريم، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1995، ص103

37 – أحمد حسين الباقوري، أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، دار المعارف مصر، د ط، د سنة ، ص72

38 – هذه الألسنة مستخلصة من السرد الذي أورده السيوطي لهذه الألفاظ في إتقانه من ص236 إلى 245

39 – الطبري، جامع البيان 1/ 57

40 – سورة فصلت، الآية 44

41– سورة هود، الآية 82

42– المصدر نفسه 1/ 56

43 – السيوطي، الإتقان ص 334

44 – المرجع نفسه ص333

45 – ابن قتيبة، أدب الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت،ط،2003،ص324

46 – الشافعي، الرسالة ، تح: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، د ط، ص 42

47– سورة إبراهيم الآية 4

48 – المصدر السابق ص 45،46

49 – ينظر الطبري، جامع البيان 1/ 56

50 – المصدر نفسه 1/ 57

51 – ينظر سالم مكرم، اللغة العربية في رحاب القرآن، من ص 111 إلى 113

52– المرجع نفسه، ص115

53 – يوسف الآية 2

54 – سالم مكرم، اللغة العربية في رحاب القرآن الكريم ص 115

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com